قراءات

د. بدرة معتصم ميموني و د. مصطفى ميموني، سيكولوجية النمو في الطفولة و المراهقة، ديــوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 182 ص.

لم يحض الطفل بالاهتمام حسب الأدبيات الغربية إلاّ في منتصف القرن التاسع عشر. وكان الاهتمام قبل ذلك ينصبّ على ذوي الإعاقات العقلية، البصرية والسمعية. يعتبر جون جاك روسو السّباق في إعطاء أهمية لمرحلة الطفولة وأكّد على إعطاء حرية للطفل ليتعلم من تجاربه الخاصة في محيطه، وهذا الأخير هو الذي يحوّل براءة الطفولة إلى راشد يعكس قمع وتعسف المجتمع بفرض معاييره وتقييده لحرية الطفل. أمّا في بداية القرن العشرين فقد أخذت الدراسات تهتم بنمو الطفل وتحديد مختلف المراحل في كل المجالات: الجسمية، النفسية والاجتماعية. وكانت كلها تهدف إلى تحسين الظروف التربوية و العلاجية، وتوفير المناخ الوجداني المناسب لنموّ صحيح ومتكامل.

في هذا الكتاب يحاول الكاتبان تقديم معلومات دقيقة حول نمو الطفل والمراهق من خلال النظريات الأساسية في هذا المجال.

إشتمل الكتاب على خمسة فصول، في الفصل الأول بدأ المؤلفان بتعريف النموّ على أنّه عدد من التغيرات التي تطرأ على الفرد في مجالات متعددة من حياته : تطور عضوي، فكري، نفسي، اجتماعي وثقافي. ويمكن اعتباره عملية تمايز تدريجي، وإضافة معلومات وإعادة تنظيم أي تعقيد أكثر فأكثر في المعارف والمهارات والإمكانات.

وهذه التغيرات هي نتيجة عوامل وراثية، بيولوجية غير وراثية (سوء التّغذية و الأمراض...)، بيئية، اجتماعية وثقافية، إضافة إلى دور الأسرة والعوامل النفسية. وكل هذه العوامل كانت نتيجة دراسات أثبتت دورها في عملية النّمو.

ويستنتج المؤلفان وجود ثلاثية تسير النمو وهي تتكون من الوراثة، المحيط ووعي الفرد بوجوده، فهو كل بيو- سيكو- اجتماعي. وهذا التشابك بين العوامل يزيد في تعقيد موضوع علم نفس النمو، وفي دراسة ألإنسان.

كما أنّ عملية النمو تخضع لمعايير منها: أنّها تنتقل من العام إلى الخاص ومن الكل إلى الجزء، أي تتمايز فيها السلوك والقدرات الحركية والفكرية والاجتماعية

بعدما كانت شاملة وبدائية. كما أنّ هناك قدرات، معارف وسلوكيات تُكتسب وأخرى تزول وأخرى تتطوّر وترقى إلى مستويات أعلى من الدقة والتعقيد والفعالية، وكل مرحلة تأتي بجديد ولكن لا تستغني عن سابقاتها. والمرحلة هي مفهوم له معنى منهجي هدفه توضيح مكتسبات الطفل و تنظيمها وتصنيفها في الوظائف الجديدة، وسبب تقسيم عملية النمو إلى مراحل هو أنّها كانت نتيجة دراسات بيّنت أنّ هناك نظام ثابت نسبيا لبروز مهارات وتطورات في فترة زمنية معينة.

بعد ذلك تعرض الكتاب إلى التطور البيولوجي انطلاقا من لحظة الميلاد حتّى مرحلة المراهقة مع ذكر مختلف الصفات و الخصائص لكل مرحلة، وذلك من جانب معايير النمو، المنعكسات الفطرية، التطور الحسي – حركي – نفسي والتطور الحركي.

تعرّض الفصل الثاني إلى نمو معرفة الذات و التنشئة الاجتماعية (La sociabilité) وتحقيقا لهذا تطرّق الكاتبان إلى دراسة تكوين وحدة الجسم ووحدة الذات، وكيف يتوصّل الطفل إلى هذه الوحدة حتى يتمكن من التعرف على ذاته كوحدة مستقلة وتفريقها عمّا وعمّن يحيطون به.

ضمّ هذا الفصل عدّة مفاهيم منها: تخطيط الجسم، صورة الجسم، الذات، الهوية الفردية، الموضوع، وكل هذه المفاهيم تختلف في مدلولها حسب المدارس النظرية الرئيسية.

أمّا مفهوم التنشئة الاجتماعية يعبر عن مدرّج بطيء متواصل يتعلّم الفرد من خلاله الأنماط الفكرية، المعايير والسلوك الخاصة بمحيطه، وكل مجتمع له خصائص وطرقه التربوية، الثقافية وأنماط التفكير وسبل تلقينها للفرد دون أن ننسى دور كل المؤسسات الموجودة في المجتمع ذات أثر قصدي أو عفوي.

الفصل الثالث خُصّص لنظرية بياجي في علم النفس التكويني (النمائي) الذي يدرس نمو وتطور الوظائف الكبرى منها الذكاء وإبستمولوجية المعرفة. وينطلق من مفهومين أساسيين لتفسير النمو: التكيّف الحاصل من التفاعل بين الفرد والمحيط ومفهوم البنيات المنظّمة للمعرفة.

إنّ سيرورة تكوين الوظائف الكبرى كالذكاء مثلا يكون حسب مبدأين "البنائية والتفاعلية"، ويحدث التفاعل على أساس عمليتي الاستيعاب والتوافق.

والنمو عند "بياجي" يحدث وفق عوامل منها: النضج البيولوجي، المحيط، التمرين، الموازنة. أمّا مفهوم المرحلة فهي طور يناسب مستوى تطوري متميّز بالبنية العامة المشتركة للسلوك والمواقف الخاصة بمستوى التطور الفكري. وهي تسير وفق أربعة معايير: التصاعد– الإدماج – التّوطيد – البنيوية.

هناك ثلاثة أطوار للنمو عند "بياجي" وهي: طور حسي حركي – طور العمليات الواقعية – طور العمليات المجردة. وكل طور ينقسم إلى مراحل فرعية وكل له خصائص معينة.

وقد كان لنظرية "بياجي" أثر كبير على التربية حيث وُظِّفت مبادئ "البنائية التفاعلية" في التّكفّل وتربية الطفل قبل مرحلة التمدرس، .كما ساهمت النظرية في تطوير عدة علوم منها: بيولوجيا، الفيزيولوجيا العصبية والعلوم المعرفية.

ولم تنج النظرية من عدّة انتقادات منها، إنها نظرية معقّدة لاعتمادها على الرياضيات والبيولوجيا والمنطق، كما فصلت الذكاء عن الجانب الوجداني والانفعالي. كما أهمل "بياجي" دور الوسيط (المربي) الذي بدونه لا يوجد معنى ودلالة للمثيرات الموجودة في المحيط. فالنظريات الحديثة تركّز على تداخل استراتيجيات التعلم عكس المنظور الخطي عند "بياجي".

أمّا الفصل الرابع فقد جاء بعنوان نظرية "هنري فالون" لدراسة الشخصية، وأهمّ ما ركّز عليه "فالون" هو احترام الطفل ورفضه الضغط والتعسّف النابع من التعميم المفرط، أي اعتبار الأطفال كلهم يمتلكون نفس الإمكانات، وحاول البحث عن كيفية تكييف وضعيات التعلّم مع الخصائص الفردية المتنوّعة جدا لدى الأطفال.

ومن الأسس لنظريته هو أنّ العوامل البيولوجية والبيئية تتدعّم وتتضارب (نوع من الجدلية) بين الفرد والمحيط، وأنّ كل نشاط إنساني يتمركز بين قطب الحاجيات البيولوجية وقطب المتطلبات الاجتماعية، فهذا التفاعل المتبادل بين الفرد والمجتمع ينتج صراعا كقوّة محرِّكة للنموِّ، والذي يعتبر متقطّع تتخلّله صراعات عكس ما يراه بياجي، كما أنّ المراحل تتداخل فيما بينها ، وكل واحدة تبرز فيها وظيفة معينة.

أمّا الفصل الخامس والأخير فقد خُصِّص لنظرية "فرويد" وأتباعه (نظرية التحليل النفسي)، وتبرز هذه النظرية أنّ هناك دوافع لا شعورية تجعل الفرد يتّخذ مواقف وسلوكا في حياته الشعورية دون أن يدرك معانيها.

وهناك نظريتان في دراسة الجهاز النّفسي، فالنظرية الأولى تشير إلى أنّ وراء السلوك توجد أنساق تسيِّر أفعال الإنسان وهي: اللاشعور، الشعور وقرب الشعور.

أمّا النظرية الثانية فتركِّز على الصراع بين الهيآت النّفسية الثلاثة : الأنا، الهو و الأنا الأعلى.

إضافة إلى هذا، اهتمّت نظرية التحليل النفسي بمفهوم الجنس حيث يرى "فرويد" (Freud) أنّ اللبيدو كطاقة ناجمة من نزوات الجنس تهدف إلى الحصول على اللذة لا في المعنى الضيّق للجنس لكن أوسع من ذلك لأنّها يمكن أن تغيِّر النزوة موضوعها مثلا بواسطة الإعلاء، الذي يعتبر أساس الأفعال للإنسان: النّشاط الثقافي– العلمي– الاجتماعي و الفنّي. وهذه النزوة ليست نفسي كليا ولا جسمي كليا، وكل نشاطات الفرد تسعى في البحث عن اللذة.

يعتبر التحليل النفسي كعلم تكويني لأنّه يدرس تطوّر وتكوين الوجدان ونضجه خلال مراحل، كما ساعد في فهم الطفل وإعطاء أهميّة كبيرة للعب في تنظيم الوجدان ومنه تنظيم الجهاز النفسي.

جاء هذا الكتاب ليقدّم جوانب متكاملة لمختلف أوجه النّمو والنّشاط منذ الطفولة المبكرة حتى ختام مرحلة المراهقة، وبالتالي يقدّم أرضية لمختلف الاتجاهات النظرية حول تكوين جوانب الشخصية: المعرفية والنفسية والاجتماعية وكذلك التطبيقات في مجالات التربية والتعليم والصحة النفسية. فهذا الكتاب موّجه لطلبة علم النفس وعلوم التربية ولكل من له صلة بالتربية والتعليم.

محمد بغداد إبراهيم

محمد داود، فوزية بن جليد، كريستين ديتريز، *الكتابة النسوية : التلقي، الخطاب والتمثلات*، منشورات المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، 2010، 544 ص.

هذا الكتاب ثمرة أشغال الملتقى الدولي (الكتابة النسوية :التلقي ،الخطاب والتمثلات) وذلك يومي 18-19 نوفمبر 2006 بمساهمة كل من فريق البحث : أنثروبولوجية المخيال والممارسات الدلالية التابع للمركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية وهران–الجزائر وفريق البحث "**فرنسا — المغرب العربي** "التابع للمدرسة العليا للآداب والعلوم الإنسانية —ليون، فرنسا.

جاءت هندسة الكتاب موزعة على أربعة محاور: الكتابة النسوية :الإشكالات و التعاريف، هيمنة ذكورية/مقاومة جسدية، السيرة الذاتية، الذاكرة و البحث عن الهوية، العالم الروائي "لأحلام مستغانمي".

بني الكتاب على ثماني وثلاثين مداخلة، عشرون باللغة الفرنسية وسبع عشرة باللغة العربية وواحدة باللغة الإنجليزية.

جاء هذا الكتاب ليطرح مسألة الكتابة النسوية باعتبارها ظاهرة أدبية تستحق المساءلة و النقد المتواصلين، وتعميق النظر في طبيعة هذه الكتابة ومراجعة وتجديد أدواتها المنهجية من أجل تأصيل النقد النسوي وتحفيزه على بلورة خطاب خاص به .

يقدم هذا العمل إشكالية مركزية مفادها :

- ما هو المعنى الذي يمكن أن يعطى للكتابة النسوية في المغرب العربي؟
- وما هي رهانات وراهن هذه الكتابة ؟

تعتبر الكتابة النسوية رهان من رهانات الحداثة وأفق مفتوح للاشتغال و التنوع والغيرية ناجم عن عمق التجربة ودقة الفهم. تتوخي هذه الكتابة الحذر المنهجي و المعرفي عند تقسيم الأدب إلى "رجولي" و"نسائي"لأنها كانت مؤمنة بأن شرعيته تتحدد من الداخل –النص–بعيدا عن جنس المنتج، كما أن التقابل الجنساني (ذكر –مؤنث) استهلك كل الأدوار داخل المنظومة الثقافية، إذ أن التجربة تجاوزت فكرة الفصل إلى السعي لبيان الاختلاف بينهما داخل وحدة إبداعية مشتركة لمساءلة الوجود.

مساهمة طبيعة هذه الكتابة وفضاءها الرحب في إعادة ظهور أسئلة جديدة تتميز بالجرأة في الطرح والكشف عن الواقع الأنثوي الذي يسكن الكتابة النسوية عبر ممارسة المرأة الشغب داخل النص والحفر عميقا في مكبوتاتها.

فالكلمة النسائية إضافة حقيقية للإبداع بشكل عام، حيث استطاعت أن تنقل البطولة من التذكير إلى التأنيث عبر مسار"أنا" الكاتب و "أنا" البطل إلى "أنا" الكاتبة و البطلة في نفس الوقت، لتعزز بذلك مكانة الكتابة النسائية في المجتمعات المغاربية عبر زحزحة سلطة المخيال وثنائية (رجل–امرأة) ومركزية الكتابة الرجالية مقابل هامشية الكتابة النسوية لتستعيد خصوصياتها.

إن هذا الفن الإبداعي الجديد جاء كشكل من أشكال المانعة، المقاومة والنضال المبني على سلطة الكلمة النسوية باعتبارها واجب وضرورة سوسيولوجية

لفك الاعتراف والتقدير عبر التحرر والخروج من الصمت عبر النص لمواجهة التساؤلات الكبرى. كما أن الخطاب الرجولي يتكلم عن المرأة كما يشتهيها، كفتاة يانعة جميلة مغرية، المرأة في الحس الرجولي إحدى حالتين، أنوثة وشباب مثيران أو سيدة فاضلة.

فتحت المقاربات المتعددة و النقاشات ورشات متعددة على إشكالية الكتابة النسوية وإمكانية الحديث على "سميائية الأنثوي" للخروج من السياج الإيديولوجي و الرهان على العمل الإبداعي للإجابة على السؤال المعنى. فالنص النسوي هو قراءة و إعادة قراءة للمشهد الأدبي المغاربي لمواجهة الإنتاج الإيديولوجي الذكوري الذي سعى إلى تزوير الذاكرة، و المقاومة الثقافية كفعل تهوية أرشيف الذاكرة الجماعية و الفردية والارتقاء بالرمزي قصد إنعاش المخيال الثقافي و الاجتماعي وتحرير الكلمة الأنثوية.

يعد الاشتغال على الهوية في الأعمال الأدبية النسوية من صلب العملية الإبداعية لأنه يطرح الكثير من التناقضات التي تعيشها الشخصيات في هذه الأعمال التي كانت بدايتها رواية تكشف عن أزمة الهوية و تبحث عن هوية جديدة، وهي التي تعيش بين عالمين وثقافتين و فضائين ولغتين وزمنين مما يفضي إلى هوية مشوشة .

تحمل رواية آسيا جبار "تلك الأصوات التي تحاصرني" دلالات متعددة تعكس الصوت الإبداعي الأنثوي و بالمقاومة الرمزية و اللغوية وذلك بالتواصل عن طريق اللغة الفرنسية لأنها ترى فيها مساحة للتحرر من القرب والمراقبة كما أنها لغة العبور، الاختراق و التخفي، عكس اللغة العربية التي هي اللغة الأم ولغة المراقبة التي تفرض "الحجاب"، حجاب الاسم المستعار لأن الكتابة بالاسم الحقيقي يعرض صاحبها إلى التساؤل، رغم أن الاسم المستعار هو اسم مختلف عن حالة المدنية إلا أنه لا يغير شيئا في الهوية.

لا تقدم نفسها آسيا جبار ككاتبة بلغة معينة فهي لا تكتب باسم القومية الهشة و لا باسم الحداثة الرثة، فهويتها "اللاهوية" لأنها اختارت نموذج الاحتجاب الذي يمكنها من الانفلات من الرقابة.

الكتابة عند آسيا جبار ليس للتواصل فقط بل أداة للتحول، الهوية ليست ورق و مجرد عرق و لا حتى مجرد دم و إنما الهوية هي قبل كل شيء الكتابة .

السير الذاتية كذلك أخذت حقها في هذا العمل وفي الأدب المغاربي مع مجموعة من الكاتبات وعلى رأسهن "**فاطمة المرنيسي**" أو على الأصح "**سيمون دي بوفوار**" الراهن التي فوضتها سلطة الكلمة عبر السرد الذي لا يصنعه الحدث بقدرما يصنعه الوعي به ليرجع صداها إلى "**المؤنث**" لكن عبر التخييل، أو بعبارة أخرى : لعبة المحو التي ندرك من خلالها الإطار دون إدراك الجزئيات والتفاصيل أي التصوير من الخلف أو من الجانب.

أما أحلام مستغانمي كشكل من أشكال الكتابة النسائية الجديدة وكرهان جسدت لنا هذا التحول العميق للانتقال من الشعر كمدونة للفكر العربي إلى الرواية كمدونة جديدة تعبر بصدق لاسترداد حق الكلمة على حد قول "أوديل أزناف" وخلخلة المؤسسة الثقافية باستخدام أدوات معرفية نوعية سمحت بإمكانية إعادة تشكيل المرجعيات الواقعية و الثقافية و إدراجها في السياقات النصية ومن حيث إمكاناتها في خلق عوالم متخيلة توهم المتلقي بأنها نظيرة العوالم الحقيقية ولكنها تقوم بتمزيقها و إعادة تركيبها بما يوافق حاجاتها الفنية.

الكتابة النسوية في نهاية المطاف هي "**نظرة**" إلى العالم، تحاول من خلالها التسلل إلى الذاكرة الجماعية لتساهم بمكانيزمات متعددة في إعادة إنتاج وتأثيث المخيال بالأنوثة من أجل الحصول على الحق في الوجود والمعرفة و الكينونة في وسط عادة ما تتضافر فيه الجهود لإسكاتها.

أصبح النص النسوي أكثر فاعلية ليتوج هذا الأدب مبدعات من أمثال : أحلام مستغانمي، فاطمة المرنيسي، آسيا جبار، مليكة مقدم، زهية رحموني، آمال موسى وغيرهن كثير.

رضوان لحسن

سعيد حسني العزة، *التربية الخاصة للأطفال ذوي الاضطرابات السلوكية*، دار الثقافة للنشر و التوزيع، عمان، 2009، 232 ص.

يشكل هذا الكتاب بوحداته التسعة مرجعا هاما لأهل الاختصاص و العامة من المهتمين بحقل التربية و التنشئة الاجتماعية السوية للأطفال. فمن الأهمية للدارس بمكان،أن يستقرئ العوامل المتحكمة في سلوك الطفل و تصرفاته و أن

يحدد الطرق و الوسائل المساعدة على التشخيص الصحيح للوضعية النفسية والحالة الفيزيولوجية للطفل.

والسلوك ظاهرا كان أم خفيا يخضع لمعايير تحدد طبيعته و تحدد درجة تفاعل الفرد مع البنى الأسرية، الاجتماعية، الدينية و الثقافية المحيطة به. كما أنها تساهم في رصد أعراض الشذوذ و مسبباته التي تتأرجح بين الوراثة، الأسرة، الصدمات النفسية و غيرها من العوامل المؤدية إلى اضطراب السلوك و شذوذه عند الطفل. و سواء لقبت بالإعاقة الانفعالية، سوء التوافق الاجتماعي أو السلوك غير التكيفي، فإن الاضطرابات السلوكية تقف، لا محالة،حاجزا بين الطفل و العالم المحيط به، كما أنها تمنع عنه النمو السليم و تستدرجه إلى الانسحاب من الحياة العادية التي يتمتع بها غيره من الأطفال ذوي السلوكيات السّوية.

من جهة أخرى، فان هذا المؤلّف يعرض إلى الحدود الفاصلة بين الشذوذ والسواء، كما أنه يضع تصنيفا للاضطرابات السلوكية حسب المعايير التي تتبناها الجمعية الأمريكية للطب النفسي على وجه الخصوص و تلك التي يتبناها الطب عموما. و ينضاف إلى ذلك، التصنيف القائم على نسبة الاضطراب و شدتّه، دون أن يغفل، بطبيعة الحال، التصنيف النفسي التربوي الذي يعتمد على وجود المشاكل في الحيز الأسري أو على وجود مشاكل انفعالية و نفسية يعاني منها الطفل كثورات الغضب، الأنانية، الفوضوية و أخرى تكيفية كالعدوانية، القلق الملازم و الاكتئاب.

أما عن الاتجاهات في تفسير الاضطرابات السلوكية، فان هذا الكتاب يحصيها في أربع نقاط: أولها الاتجاه السلوكي الذي يعتبر أن الاضطراب السلوكي هو نتيجة لتفاعل الإنسان مع بيئته. أما الاتجاه الثاني و المتمثل في الاتجاه الفيزيولوجي فهو يربط هذا الاضطراب بالخلل في وظائف الأعضاء الجسمانية للإنسان. هذا، في حين يولي الاتجاه الثالث و هو الاتجاه التحليلي أهمية بالغة للعمليات النفسية من خلال تفسير السلوك عبر ثلاثة أبعاد تتمثل في الهو، الأنا والأنا الأعلى. أما فيما يخص الاتجاه الرابع و الأخير فهو الاتجاه الدينامي الذي يقوم على فكرة وجود تفاعل دينامي بين جسم الإنسان و ذاته.

يسلط الكاتب الضوء أيضا على خصائص المضطربين سلوكيا كانخفاض نسبة الذكاء الذي ينتج عنه بالضرورة بطء في التعلم و انخفاض في المردود الدراسي،

بالإضافة إلى النشاط الحركي الزائد، سوء التكيف الاجتماعي، و ما إلى ذلك من الأعراض المرتبطة بهذه الفئة.

و هو يعرض كذلك مختلف البرامج التربوية و العلاجية و يشيد بالدور المنوط بالأولياء و المعلمين في تشخيص الداء السلوكي عند الطفل و الأخذ بيده لمواجهة العوائق التي تترصده جراء الاضطرابات التي يعاني منها سواء في حياته اليومية أو الدراسية. كما يحيط المؤلَف ببعض المشكلات السلوكية لدى الأطفال منها تلك المرتبطة بعدم الشعور بالأمان و تلك الناجمة عن اضطراب العادات، كقضم الأظافر، اضطرابات النوم و التبول اللاإرادي، إلخ، و هو يصف العلاج لكل حالة من هذه الحالات وينعت طرق الوقاية من مختلف المعضلات التي تتسبب في اضطراب السلوك عند الطفل.

إضافة إلى ذلك يشرح المؤلف جملة من أساليب التدخل التربوي و العلاجي الكفيلة بتعديل تصرفات الطفل المضطرب سلوكيا و تعويده على أشكال الانسجام الاجتماعي في إطار إستراتيجية علاجية تقوم على عدة ركائز نذكر من بينها تنظيم الظروف البيئية و التدريب على المهارات الاجتماعية.

في الأخير، فإن الكاتب يخصص وحدة كاملة لمناقشة مناهج و طرق تدريس الأطفال ذوي الاضطرابات السلوكية مع إبراز الخصائص العامة لهذه المناهج والأهداف المسطرة ضمن البرامج الموجهة لهذا الغرض.

صورية مولوجي- قروجي